

غيض من فيض الدراسة العربية بوجه عام. والدراسة الجامعية العربية مثلها في ذلك مثل غيرها من الدراسات غير الجامعية، وفي شتى الحقول المعرفية، ما يزال موقفها من البحث العلمي الرصين والهادئ يقوم على الاستنكار ويقابل بالاستهزاء. ولعل السبب في ذلك يعود إلى الوضع الذي وجدت عليه الأمة العربية نفسها بعيد ما عرف بعصر النهضة، وبعد الحرب الثانية. إنها تعيش وضعية الذي يحس بتأخر تاريخي من جهة، وفي وضع «المهدد» في عالم يعيش خارج عصره.

من هنا يكتسي بعد الصراع طابعه البنيوي في التفكير والممارسة. غير أن الصراع يختزل في البعد الايديولوجي، ولا ينظر إليه في بعده الحضاري العام.

هذا التصور يجعل البحث في المجال الأدبي والمعرفي يعتمد بشكل خاص طابع السجال، وينبني على ملاءمة اجتماعية، هدفها الأساس توظيف أية معرفة أو عمل علمي لغايات ايديولوجية استعجالية.

2.4.2. يبرز لنا ذلك بشكل جلي في مختلف الدراسات والأبحاث، وفيما قدمناه عن دراسات السيرة الشعبية مثال مصغر على ذلك، على نحو ما نلخص ذلك من خلال النقط التالية:

1 - عورضت الرؤية التقليدية حول السيرة الشعبية لغاية نبيلة: إثبات أن في التراث العربي كل ما يتهمنا الآخرون فيه. وإبداع الشعب لأبد من الالتفات إليه. ففيه تتحقق أبعاد عديدة نحن محتاجون إليها: البعد الديني، والقومي والبطولي والإنساني، علاوة على جماليته الخاصة التي ما تزال تشكل جزءاً من الذاكرة العربية.

2 - إن الوعي بأن في التراث العربي كل شيء أوقع الدارسين في مشاكل علمية لم ينجحوا في تجاوزها. فالقول بأن السيرة الشعبية ملحمة أو رواية أو قصة أو مسرحية يستدعي «نظرية» للأنواع وغياب نظرية للأنواع قديماً أو حديثاً عند العرب، جعلهم يكتفون بالانطباع في التمييز ووضع الحدود بين الأنواع ولكنهم في تحليلاتهم يتجاوزونها.

3 - غياب نظرية للأنواع واكبه خلط آخر على صعيد الاختصاص الذي يدرس